بسم الله الرحمن الرحيم

أ.د/ حسن الشافعي

التعددية الدينية من وجهة نظر ~~[illegible]~~ إسلامية

من إعداد أ.د/ حسن الشافعي

" التعددية الدينية " بصيغتها الراهنة مفهوم ظهر فى الفكر الغربى ، وبخاصة فى مجال " دراسات الأديان " وذاع خلال النصف الأخير من القرن الماضى ، ثم صار قضية تشغل الناس دينيًا واجتماعيًا وسياسيًا فى مختلف أنحاء العالم ، تعقد له الندوات ، وتجرى حوله الدراسات وتصدر عنه الكتب والمقالات ، ويهتم به الجمهور من المثقفين وغيرهم . وقد وصلت أصداؤه — بصيغته الراهنة ، وبعد أن صار قضية عامة لا فكرة فلسفية — إلى العالم الإسلامى ، ربما خلال الربع الأخير من القرن نفسه ، ونال من الاهتمام العام — أكاديميًا واجتماعيًا وسياسيًا — قدرًا ملحوظًا ، وإن لم يبلغ مبلغه فى الغرب .

وليست فكرة التعددية بعامة ، والتعددية الدينية بخاصة — حسب مفهوم معين قد لا يتفق تمامًا مع المفهوم الغربى الرائج — فكرة جديدة فى الوسط الإسلامى ، غير أنه أصبح الآن قضية دينية واجتماعية ، ومن ثم طرح للتناول والبحث فى هذا الملتقى العتيد ، وطلب إلى أن أقدم حوله بعض الأفكار ؛ فكتبت هذه الفقرات الأربع :

أولاها : عن المفهوم وأهميته ، ودواعى إثارته فى الظروف الراهنة .

والثانية : عن الأسس التى تقوم عليها فكرة التعددية ، والاتجاهات المختلفة فى هذا الصدد .

والثالثة : عن بعض الآثار التى نجمت عن شيوع المفهوم الغربى للتعددية سلبًا أو إيجابًا .

وفى الأخيرة نحاول أن نلقى بعض الضوء على ما عساه ~~يحل~~ يمثل وجهة نظر إسلامية إلى جوانب الموضوع المختلفة — فأقول وبالله التوفيق :

- ١ -

المفهوم ، وأهميته ، ودواعى بروزه :

نشأ مصطلح " التعددية الدينية " فى الغرب ، وأخذ يشيع منذ منتصف القرن الماضى ، كما أسلفنا ، وهو ترجمة للعبارة الإنجليزية " Religious pluralism " التى لا يوجد حتى الآن اتفاق حاسم على تعريفها وتحديدها نظرًا للاختلاف فى تحديد مفهوم " الدين " نفسه الذى تنسب إليه التعددية ، وأيًا ما كان الأمر ، فإن هذه العبارة أصبحت تدل على معنيين : أحدهما يغلب عليه الطابع الاجتماعى أو السياسى العام . والآخر : يشيع فى مجالات الدراسات الإنسانية والدينية ، وبخاصة مقارنة الأديان .

فالأول يعنى : تعايش المعتقدات الدينية المتنوعة المختلفة ، والأديان بمفهومها الواسع ، فى وقت واحد مع بقاء مميزات وخصائص كل منها "(١) . وفى هذا التعريف عناصر ثلاثة : التنوع ، والاختلاف ، والتعايش السلمى الذى يتيح الفرصة للحفاظ على التنوع والاختلاف . وهذا التعريف — فيما يبدو لى — يلقى القبول فى الأوساط الإسلامية نظريًا واجتماعيًا كما سنبين ، ويكفى أن نورد هنا تعريف " محمد سليم العوا " للتعددية بوجه عام — وهو مفهوم يشمل " التعددية الدينية " : " التعددية تعنى فى جوهرها التسليم بالاختلاف : التسليم به واقعًا لا يسع عاقلا إنكاره ، والتسليم به حقًا للمختلفين لا يملك أحد ، أو سلطة حرمانهم منه"(٢) ، وقريب منه موقف الدكتور محمد عمارة الذى يرى أنها :" تنوع مؤسس على تميز وخصوصية ... "(٣) .

أما التعريف الآخر ، ولعله الأشيع فى الأوساط الغربية المهتمة بدراسات الدين ، فهو حسب صياغة جون هيك :" التعددية الدينية نظرية خاصة عن علاقة الأديان كتقاليد ثقافية ، واختلافها فى ادعاءاتها المختلفة للحقيقة ، وهى النظرية التى تقول بأن الأديان العالمية الكبرى ، إنما هى تنوع نظرات الإنسان إلى الحقيقة الإلهية الخفية العليا الواحدة ، وتصوراته عن هذه الحقيقة ، واستجاباته لها "(٤) .

ومما يوضح هذا التعريف أن نذكر أن "هيك" يرى أن مواقف الإنسان الدينية تتنوع من " النحبوية الضيقة المنغلقة ، إلى العالمية المتفتحة ، إلى هذه التعددية الشاملة ، ومن ثم فهو يسعى مع من يشاركونه الرأى إلى بناء " اللاهوت العولمى " Global theology " ، وذلك بتحويل الاتجاه أو الجهد الإنسانى من محورية الدين إلى محورية الإله ، والتأكيد على أن كل الأديان تعبيرات نسبية أو مظاهر واستجابات مختلفة للحقيقة الماورائية المطلقة الواحدة التى هى الحقيقة فى ذاتها . وهذا التعريف يواجه كثيرا من التحفظات من المفكرين المسلمين كما لقى فى الأوساط الغربية أول الأمر ، وذلك لاختزاله " الدين " فى الجانب الماورائى وهو فى نظر علمائه نظام حياة شامل ، ولقوله بنسبية الحقيقة الدينية وهو ما لا يقرونه أيضًا ، ولزعمه أن الأديان هى استجابات الناس للحقيقة العليا من خلال ثقافاتهم المختلفة وتناسيه أن الأديان التوحيدية الكبرى إنما تقوم أساسًا على الوحى المعصوم لا الثقافة السائدة . هذا فضلاً عن غموض فكرته عن التحول من الدين إلى الإله ، وعن تصوره الحقيقة العليا فى ذاتها التى تستعير مصطلحات كانط (٥).

وبالرغم مما تواجهه نظريات " التعددية الدينية " ومقولاتها المتنوعة أيضًا من معارضة أو تحفظ حتى فى بيئتها الغربية نفسها ، فإنها شاعت وذاعت ، وملأت الدنيا وشغلت الناس ، وذلك لأنها لم تنشأ من فراغ بل كانت هناك دواع وأسباب — من داخل الأديان ذاتها — أدت إلى هذا الذيوع والانتشار ، وإن كانت بعض الأحداث والاستراتيجيات السياسية والجهود العلمية الموجهة قد ساعدت على ذلك أيضًا .

أ ـ فمن الأسباب الداخلية :

١ ـــ اختلاف الأديان السائدة فى العالم فى تصور الإله ، وجودًا وعدمًا ، وحدة وتعددًا ، تشبيهًا وتنـــزيهًا ، وفى وظيفة الدين شمولاً وضيقًا ، خلاصًا روحيًا أخرويًا أو خلاصًا دنيويًا اجتماعيًا أو هما معًا . هذا مع اعتقاد معتنقى كل دين اعتقادًا جازمًا بصحة ما هم عليه وأفضليته على ما سواه . وما عساه ينجم عن ذلك كله ـــ عند ضيق الأفق والتعصب ـــ من مشكلات ، دعت القوم فى الغـــرب أولاً ـــ كما عانوه من تلك المشكلات ، مع غير المسيحيين ، بل مع المسيحيين من طوائف مختلفة إلى التواصى بالليبرالية والتسامح مع المختلفين دينيًا ، فى الأوساط البروتستنتية ثم الكاثوليكيـــة ، حـــتى انتهت أخيرًا فى مطلع الستينات إلى ما قرره مجمع " الفاتيكان " الثانى من جواز نجـــاة المنتســـبين إلى الأديان الأخرى غير المسيحية . وقد كان الوضع فى الجانب الإسلامى مختلفًا باعتراف المؤرخين مـــن غير المسلمين كتوينبى وبرنار لويس ـــ بحكم اعتداد القرآن بالـــديانات الكتابيـــة أساسًـــا وتنويهـــه بالإبراهيمية ، ومعاملة الآخرين من الأديان الشرقية ـــ بتوجيه من الرسول نفسه ـــ معاملـــة أهـــل الكتاب مع بعض الفروق الاجتماعية ، لكن الوضع العالمى كان بحاجة إلى عمل شىء وتحبًا لآثـــار هذا الاختلاف الاعتقادى فنشأت نظريات التعددية ، ومنها تلك التى تنادى بنسبية الحقيقـــة الدينيـــة لتقليل الفروق ، والتبشير " بثيولوجيا عالمية "(٦) جامعة .

٢ ـ **ومن الأسباب الداخلية :** اعتقاد أتباع كل دين بنوع من الأفضلية أو الاختيار الإلهـــى لمعتنقيه ، ولا يكاد يخلو دين ـــ حتى الهندوكية التى يعتبرها البعض أكثر تسامحًا (٧) ـــ من هذا الأمر ، وربط الخلاص به ، وفى هذا الصدد يورد الباحثون فكرة " خيرية الأمـــة " المتضـــمنة فى آيـــة آل عمران (رقم ١١٠) : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنـــهون عـــن المنكـــر وتؤمنون بالله ﴾ إلاّ أن هذه الفكرة كما تصرح الآية ليست مطلقة ، بل هى مرهونة بشروط ثلاثـــة إذا لم تتحقق لم يتحقق المشروط ، على أن الأفضلية عند الله حقا إنما تبنى على " التقوى " لا مجـــرد الانتماء إلى أمة أو شعب بعينه ، وهى حكم إلهى أخروى متروك لله ـــ عز وجل .

٣ ـــ ومنها أيضًا مسائل تاريخية إنباء بما سبق أو ما سوف يحدث فى المستقبل ، على نحو يختلف فى تراث كل دين ، أو فى تأويل أصحابه ، عما لدى غيرهم ، ويمكن أن تنشأ بسببه علاقات متوترة ، قد تؤدى إلى غاية مخالفة لما ينص عليه القرآن : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم مـــن ذكـــر وأنثـــى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ [الحجـــرات : ١٣] . غير أن أساطين " التعددية الدينية " ظنوا أن علاج ذلك يكون بالتسوية بين سائر الأديان تمامًا ، وألا فرق بينها فهى تتقاسم الحق ، ومن ثم يكمل بعضها بعضا ، وهو دعوة ما يقال فيها : إنها غير واقعية .

ب ـ أما الأسباب الخارجية :

هناك أسباب ودواع لبروز فكرة التعددية فى ثوبها المعاصر ، لا ترجع إلى الأديان نفسها بقدر ما ترجع إلى ظروف سياسية ، وثقافية ، وواقعية :

١ ـــ فمن الواضح أن النظام العالمى بعد انتهاء الحرب الباردة صار أحادى القطب ، بل أحادى الهدف ، وهو تحقيق هيمنة الحضارة الغربية والمواقف الأمريكية على العالم ، ممثلاً فى دعـــوة العولمـــة وحرب الإرهاب التى يعتبرها أكثر المفكرين المسلمين اجتياحًا للعالم الإسلامى خاصة ، مع تهديـــدها لمناطق أخرى ، وكثيرًا ما تستخدم فكرة التعددية فى موكب العولمة لتحقيق أهداف سياسية لا علاقة لها بالدين (٨) .

٢ ـــ ومن الدواعى الخارجية كذيوع فكرة " التعددية الدينية " جهود ومشروعات بحثية ، تـــتم فى الجامعات ومراكز الأبحاث الغربية على أيدى الخبراء وبخاصة المستشرقين الذين يتخذون الشـــرق والإسلام خاصة موضوعا للدرس وتقديم النصح لأصحاب القرار ، وقد أثبتت الدراســـات المحايـــدة للاستشراق ـــ وبعضها بأقلام أمريكية ـــ أن بعض تلك الأبحاث ـــ وبخاصة ما يتعلق منها بـــالفرق الدينية الإسلامية ، والفرق المنشقة والأقليات غير المسلمة فى المجتمع الإسلامى ـــ قد أدت دورًا سلبيًّا فى التطورات المعاصرة فى العديد من بلدان العالم الإسلامى المعاصر (٩) . لقد انتقلت هذه الدراسات ـــ أو بعضها من الدور النظرى الوصفى الموضوعى إلى مهام عملية ترجـــع إلى التخطـــيط للعولـــة الثقافية .

٣ ـــ ويقتضى الإنصاف أن أذكر أن أخطاء التعامل المتبادل بين المواطنين فى المجتمعات المتعـــددة الديانة والمظالم التى لا يبررها أى دين على الإطلاق ، سواء كانت فى الشرق أو الغرب ، هى مـــن الدوافع الهامة لشيوع دعوات " التعددية الدينية "(١٠).

وبناء على هذه العوامل التى أوردناها ـــ داخلية وخارجية ـــ وغيرها مما لم نذكر شاعت الفكرة فى العالم ، ولئن كانت جديدة نسبيًّا فى العالم الإسلامى كما ألمحنا آنفًا ، فقـــد ذاعـــت فى العقـــود الأخيرة من القرن الماضى ، وساعد على ذلك احتكاك شباب المسلمين وغيرهم بـــالفكر الغـــربى ، وجهود بعض المفكرين المسلمين من أمثال رينيه جينو الفرنســـى (١٨٨٦ ـــ ١٩٥١ م) وشـــون الألمانى ، والسيد حسين نصر الإيرانى ، مما قد نعود إليه فيما بعد ، لكنا نختم هذه الفقرة عن أهميـــة الفكرة ودواعى انتشارها إلى إحصائية ـــ مع أنها انتقائية غير شاملة ولا حاصرة ـــ عن موضـــوع " التعددية " فى عام ١٩٩٥م ، أى منذ أكثر من عقد كامل من السنين ، تضم ١٢٢ عنوانًا ، مما يبشر بالاهتمام المتزايد بقضية تعد حديثة العهد بالفكر الإسلامى المعاصر (١١) .

تيارات واتجاهات فى مجال الفكر التعددى :

يوجد فى مجال الدعوة إلى " التعددية الدينية " والتأصيل لها فكريًا اتجاهات أو تيارات متمـــايزة ، تلتقى جميعها حول المفهوم العام للنظرية ، وتتنوع وتتمايز بعد ذلك فى زاويـــة النظـــر ، وأســـاليب التناول ، وفى الأسس والخلفيات الفكرية التى تقوم عليها هذه الاتجاهات ، وسنحاول فى هذه الفقرة استعراض أهم هذه الاتجاهات أو التيارات ــ إن صح هذا التعبير ــ مع الإلماح إلى علاقتها بـــالفكر الإسلامى ، وهو الأمر الذى نرجو أن نزيده إيضاحًا فى الفقرة الأخيرة بإذن الله .

أ ـ الاتجاه الإنسانى العلمانى :

يقوم هذا الاتجاه على مركزية الإنسان فى الكون ، وتعود أصوله الأولى إلى الفلسفة الإغريقية قبل سقراط ، لكنه نال دفعة قوية عند مطالع عصر النهضة الأوربية وما بعده ، وأسهم فى إعادة صـــياغة فلاسفة محدثون كثيرون يتراوحون بين التدين والإلحاد من أمثال لوك وروسو وأوجســـت كونـــت وجون ديوى ورسل وأمثالهم ، ومع تفاوت مواقفهم فهم يلتقون على " تعزيز القيم الإنســـانية ... . بدون الاعتماد على العقائد والتعاليم الدينية (١٢)، والدعوة إلى " الليبرالية " والديمقراطية ومن ثم إلى التعددية السياسية ، والمساواة والتسامح بين عناصر المجتمع المدنى فى ظل الدولة القومية . وهى رحلة فكرية طويلة ، أفرزت أفكارًا عديدة فيما نحن بصدده نحاول تلخيصها أو الإشارة إلى بعض عناصرها البارزة فيما يلى :

١ ـ **محورية الإنسان بدءًا وغاية** : تلك ثمرة من ثمار الثورة الفكرية والثقافيـــة فى العصـــر الحديث ، فمصالح الإنسان هى الأجدر بالرعاية ، وما ينفعه حسب التجربة يؤخذ به وما لا ينفعـــه يترك ، وهذا " دين الإنسانية " متوهمًا أن فكرة الإنسانية يمكن أن تلبى حاجات الإنســـان الروحيـــة وتحل محل الإله . وبصرف النظر عن دعوة كومت التى قد تتناف مع منهجه الوضعى ، فإن الدعوة إلى التسامح والمساواة واحترام حقوق الإنسان نالت اهتمامًا كبيرًا ، وتوجت بصدور مواثيـــق حقـــوق الإنسان حوالى منتصف القرن الماضى من هيئة الأمم المتحدة ، وقد أسهم التطور الفكرى فى أمريكـــا فى دعم هذا الاتجاه وإن كانت الحركة التنويرية لم تعاد الأديان بل نـــزعت إلى تأييدها أو التعـــايش معها . ومن أهم الأفكار التى أفرزتها التعددية الأمريكية " الديانة الشعبية " التى دعا إليها فرنكلين عام ١٧٤٩ م ليضمن الولاء للدولة والتماسك الشعبى بعد يأسه من المؤسسات الكنسية ، وجرى عامـــة الزعماء من بعده على أن الدين والأخلاق لا غنى عنهما لإيجاد الرفاهية السياسية ، حتى جاء ولـــيم جيمس فى القرن الماضى وكان دعا إلى التجربة الدينية ، ولكنه ــ حسب النـــزعة البرجماتية ــ قال : " إذا كانت الأفكار اللاهوتية تأتى بالنفع الأفضل لنا ، وإذا كانت فكرة الإله خاصة قد ثبـــت أنهـــا تحدى ذلك النفع ، فكيف يمكن للبراجماتية أن تنكر وجود الإلـــه " (١٣)، إن مركزيـــة المصـــلحة

الإنسانية واضحة فى هذا التطور للفرد وللمجتمع والدولة ، وهو ما أكده جون ديوى أيضًا فى دعوته للإيمان المشترك (Common Faith) : دينًا بدون إله ، مما اعتبره بعض أتباعه " دين الأديان يمكن للجميع أن يجتمع فيه بحرية كاملة " فى ظل وثائق حقوق الإنسان التى غدت نصوصًا مقدسة (١٤) .

٢ ـ العلمانية أساس للتعايش السلمى بين الأديان :

يتضح من العرض الذى أسلفناه آنفًا أن الغاية التى توخاها كل من فرنكلين وجيمس وديوى ، هى تحقيق التعايش السلمى بين الجماعات المتنوعة دينية كانت أو طائفية أو عرقية أو مذهبية ، قومية كانت أو إقليمية أو دولية على أساس من القيم الديمقراطية والتسامح وحقوق الإنسان ، فاستقر لدى القوم ـــ بالتضافر مع التجربة الأوربية ـــ أن النزعة العلمانية هى خير وسيلة للتعددية السياسية والدينية ، وتحقيق التعايش السلمى بين البشر ، غير أن الجديد فى هذا المجال يتمثل فيما سمى " لاهوت العلمانية " الذى يفرق بين العلمانية باعتبارها مذهبًا ، والعلمنة باعتبارها عملية أو صيرورة ثقافية (Cultural Process) حتمية ، كما يرى هارفى كوكس الذى يقول :" العلمنة هى العملية التاريخية المحررة التى لابد أن تحدث حتما فى أى مجتمع وفى أية ثقافة ، من وصاية السلطة أو السيادة الدينية والغيبية ، فهى ليست العلمانية التى هى اسم لأيديولوجية مغلقة ... إنها ليست تلك التى تحارب الأديان وإنما فقط تتجاهلها ، وتتركها على نسبيتها مع خصوصيتها ، وتقطع جزءًا من وظائفها التى كانت تتمتع بها فى الماضى ، ألا وهى الوظيفة السياسية الاجتماعية " (١٥)، وهو يعتقد أن التعددية والتسامح هما الثمرة الطبيعية لهذه العلمنة ، وفى ظلها يتكيف الإنسان مع روح العصر دون الوقوع فى العلمانية المقيتة ، وله أن يتدين ويتعبد على نحو فردى مع ترك المصالح الاجتماعية لحكومة علمانية . ويجهد كوكس نفسه فى تتبع " الكتاب المقدس " لإثبات أن هذا التطور الحتمى هو الموافق إرادة الرب .

والأسئلة التى تفرض نفسها هنا : كيف يمكن أن تتحقق العلمنة دون الوقوع فى العلمانية ؟ وإذا كان التراث المسيحى ـــ حسب تأويله ـــ يتوافق مع العلمانية أو العلمنة ... فهل يضمن مثل هذا التوافق مع النصوص الدينية الأخرى كالقرآن مثلاً ؟ هذا ما لا يوافقه عليه جمهور المفكرين المسلمين باستثناء أفراد منهم (١٦) ، ومنهم المفكر الأندونيسى " نور خالص ماجد " الذى أجهد نفسه فى الدفاع " البانشاسيلا " ومحاولة توفيقها مع القرآن الكريم (١٧) .

٢ ـ الاتجاه اللاهوتى العولمى : وقد تعرضنا له فيما سبق ، وهو يتطلع إلى بناء ثيولوجيا عالمية ، إفادته من حركة العولمة الناشطة فى السنين الأخيرة ، وسنشير هنا إلى أمرين كان لهما أثر بالغ فى دراسات الدين ، ودعوة " التعددية الدينية " .

وقد أبدينا هناك رأينا فى محاولة " جون هيك " تغيير اتجاه التفكير والممارسة الدينية من محورية الدين إلى محورية الإله ، ولما كانت أعماله امتدادًا بوجه ما ، وإضافة إلى أعمال زميله ولفريد كانتويل سميث ، فلعل من المناسب هنا أن نعرض لفكر هذا الأخير بشأن التعددية الدينية ، لقد سعى سميث لمواجهة ما اعتبره " أكبر القضايا تحديًا ، وأكثرها أهمية لإنسان القرن العشرين ، وهى كيف تحول مجتمعنا العالمى الذى بدأ يظهر فى الوجود إلى جماعة عالمية (١٨) ، وكان كتابه المتأخر نسبيًا " نحو لاهوت عالمى " تتويجًا لهذا الاتجاه العالمى أو العولمى — ولكى يبنى الرجل ما أسماه " الصداقة العالمية " التى يتعلم فيها الناس أن يتفاهموا ويوالى بعضم بعضًا عبر الحدود الدينية ، ركز على دراسة مصطلح " الدين " ؛ لينتهى إلى نتيجة عجيبة :" ليست هناك ، لا فى الأرض ولا فى السماء ، تلك الأشياء التى تسمى الأديان ، فالذى نسميه " الدين " إنما هو على زعمه مجموعة من الاعتقادات المتطورة من حين لآخر ، ينظر إليها الناس كلٌ من خلال نافذة أو نظارة فكرية ثقافية معينة ، فيرى ما لا وجود له فى الواقع ككيان موضوعى ... . فالظاهرات التى نسميها دينية موجودة ، ولكن الاعتقاد بأنها تشكل كينونة متميزة يقال لها " الدين " هو تخليل لا مبرر له . هذا هو الحسم العلمى إذا ما نظرنا إلى الأمر من خلال " نظارة الثقافة التنويرية " . إن الشىء الموضوعى هو مجموعة التقاليد الدينية المتراكمة على امتداد تاريخ الإنسانية المتطورة بصفة دائمة ، فى مقابل الجانب الذاتى المتمثل فى الإيمان الشخصى أو التدين الفردى ، وفيه يمكن للمرء أن يكون مسيحيًا ومسلمًا فى ذات الوقت كما حاول هو نفسه أن يكون .

إن نظارة سميث الموروثة من عصر التنوير ، كنافذة هيك ، كلاهما ربما يمثلان ، العقلية الفكرية الغربية فى النظر إلى التقاليد الدينية أو بالأحرى إلى تراثهما الدينى ، اما الأديان التى نسخ سميث وجودها بجرة قلم — وبالأخص الإسلام — فلعلها تحتاج إلى نظارة مغايرة وتكوين فكرى مختلف . على أن الرجلين ربما أحسا بصعوبة ما يهدفان إليه أو عدم واقعيته ، فنادى هيك : لنعمل على بناء لاهوت عالمى إن لم يكن ممكنًا أن يكون هناك دين عالمى ، سعيًا إلى التعايش السلمى والتسامح المتبادل الذى هو غاية التعددية الدينية (١٩) .

ج - وهناك اتجاه توفيقى :

ربما يبدو تلفيقيًا ، قال به عدد من المفكرين المنتمى أكثرهم إلى شبه القارة الهندية — منهم راداكريشان وراماكريشنا وغاندى — أنشأوا بالتعاون مع مفكرين غربيين فى مطلع القرن الماضى ، رابطة تعمل على تحقيق تعارف أفضل بين منتسبى الأديان المختلفة ، وتأكيد العناصر العالمية فى كل الأديان ، والنهوض بالأخلاقيات فى العالم ، ثم أنشاوا فى ١٩٣٦م المؤتمر العالمى للأديان سعيًا إلى هذه الأهداف التى يرون أنها تسهم فى إرساء التعددية الدينية والتعايش السلمى ، ولكن بمفهوم خاص يقوم

على العبور أو الانتقال بين التقاليد الدينية المتنوعة ، والتسامح مع الاختلافات والتنوعات واحترامها ، والاعتقاد بنسبية الحقائق الدينية ، ولهم فى ذلك أصول منها :

١ ـــ تقاسم الحق بين الأديان ، فالحق المطلق ليس وقفا على دين بعينه ، ولكن لكل دين نصيبه من الحق الجزئى النسبى .

٢ ـــ والمبدأ الثانى المكمل لسابقه هو أن الأديان يكمل بعضها بعضًا ، وكلما حدث اتصال بين الأديان ، فهناك توجه التوفيقية والتكامل بينها ، والإيمان بوحدة بنى الإنسان وتساويهم . والمبدأ الذى ينبغى أن يسود العلاقات الإنسانية هو أهمسا (Ahimsa) الذى هو مزيج من التسامح والمحبة نادى به غاندى ، وهو إلى الثانية أقرب فإن التسامح (Tolerance) قد يشعر بشىء من الاستعلاء والتنازل ، والواجب أن نحترم المعتقدات الدينية للآخرين ، ونحبها كما نحب عقائدنا ونحترمها (٢٠) . وربما ناسب أن نشير هنا إلى الدعوة البهائية التى خرجت من عباءة التشيع الإثنا عشرى معاصرة لحركة راما كريشنا ، ودعت إلى " وحدة الأديان والإنسانية تحت الإله الواحد ، كما ينص على ذلك بعض كتبها المعتمدة :" .. .. تحقيق وحدة عالم الإنسانية والتحام أديان العالم المختلفة ، وتحقيق الوئام بين الدين والعلم ، وتحقيق السلام العالمى .. " وربما قاربتها فى نزعتى التلفيق والتكامل " النحلة القاديانية " التى انشقت عن الإسلام السنى فى شبه القارة الهندية (٢١) .

د ـــ أما الاتجاه الرابع والأخير فهو الحكمة الخالدة " Perennial Philosophy " :

أسسه طائفة من المفكرين ، لعل أبرزهم المفكر الإيرانى المعاصر " سيد حسين نصر " الذى يرى أن الاتجاهات السابقة لم تخدم الهدف وهو " التعددية الدينية " كما ينبغى ، بل انتهت إما إلى الحط من كل ما هو مقدس ، فكانت عونًا للعلمنة عن وعى أو غير وعى ، وربما مثلت آلية من آليات هذه العملية نفسها ، والحط من مطلقية الأديان واعتبارها مجرد حقائق نسبية ، وإما إلى تذويب كل الفوارق المميزة بين الحقائق . أما أطروحة " الحكمة الخالدة " فتطمح إلى أن تعيد للأديان طبيعتها المقدسة الكاملة المطلقة . وهو يعتقد أن الحكماء الكبار الذين بشروا بهذا الاتجاه فى العلاقات بين الأديان هم : رينيه جينو ، وشون ، وكومارا سوامى ، الذين دافعوا عن التقاليد الدينية بمعنى الحقائق أو المبادئ الإلهية الأصل الموحى بها إلى الناس والكون جميعا عن طريق الرسل والأنبياء ، وهى واحدة دائمًا وفى كل مكان بصرف النظر عن أى شكل تتلجى فيه (٢٢) .

لكن كيف حفظ هذا الاتجاه على الأديان طبيعتها المقدسة المطلقة ، مع تعارض الادعاءات بالأحقية المطلقة ؟ يجيب نصر بأن المطلق حقا هو المطلق الكلى أى الله سبحانه ، وكل مظهر من مظاهر التجلى ومنها الأديان داخل فى دائرة النسبية ، لكن بما أنه من تجليات المطلق فهو مطلق أيضًا غير أنه ليس المطلق فى ذاته ، فمطلقية كل دين هو بالنسبة إلى عالمه الخاص ، فالأديان كالشموس ، لكل نظام شمسى شمسه ... وهو يستخدم فى هذا الحل مصطلحات صوفية وفلسفية ترجع إلى فكرة

الظاهر (أو التجلى) والباطن (أو المطلق) كما أنه يومئ إلى وحدة الأديان فى أصولها ، وإن اختلفت شرائعها ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ [الشورى : ١٣] . فالأديان طرز متمايزة لكنها تعبر عن مركز واحد ، وتكون مطوية داخل محيط الدائرة الواحدة ، وكل واحد منها يعبر عن الحقيقة الإلهية التى هى المركز والدائرة الشاملة فى نفس الوقت (٢٣) .

وكل هذه الأفكار ، وإن شابها شيء من الغموض ، يبدو فى دائرة القبول ، غير أن السيد نصر يؤكد أصالة الأديان كلها وأحقيتها بالاتباع فى كل زمان ومكان ، مما أثار عليه نقدا لاذعًا حتى من بعض تلاميذه ، وإذا لاحظنا قوله " الأديان كلها " أى أن يتبعها المؤمن جميعا ، ولا يقع فى التوفيقية الانتقائية التى يهاجمها السيد نصر فلربما خفف النقاد من غلوائهم (٢٤) .

- ٣ -

آثار ونتائج :

نود أن نعرض هنا لبعض الآثار والنتائج التى تجمعت عن شيوع فكرة " التعددية الدينية " الإيجابى منها والسلبى على حد سواء .

- فمن النتائج الإيجابية :

١ ــ عرض المشكلات المتصلة بالعلاقات الدينية على بساط البحث ، وتعريضها للنور ، هذا إذا كانت النوايا صادق ، والمواقف غير منحازة ، والهدف هو التعارف ، فى إطار الاحترام المتبادل ، للتوصل إلى حلول لما عساه يتحدد من مشكلات ، وطرح الإحساس بالحرج أو التخوف من الاختلاف ، وهذا ما يعترف به مفكر مسلم محافظ :" لقد مضى علينا زمان كنا نعتبر فيه أن كل اختلاف شر وظلم ... . بينما فرق المسلمون الأوائل بين الأساسيات التى لا يجوز الاختلاف فيها والفرعيات التى لا يصلح فيها إلغاء الاختلاف ... أما فى الأزمنة الحديثة فقد ساد منهج الإلغاء تحت اسم الدمج والتوحيد .. وما نتج عن ذلك غير التناكر بدل التعارف ، والتباعد بدلا من التقارب ... وما عدنا إلى نهج التعارف بعد تضاؤل خطط نهج الإلغاء والدمج ، بل جاءتنا العولمة التى تنذر الاختلاف تحت اسم إعطاء الحق والاعتراف .. لا يصلح إلا نهج التعارف الذى ذكره القرآن الكريم بوصفه تعرفًا على الاختلاف واعترافا به ، وسعيا للجوامع ، وانفتاحًا على الآخر ... ومنهج التعارف هو المنهج الإلهى " (٢٥) .

٢ ــ ومن النتائج الإيجابية الاستقرار النسبى لقواعد ثلاث تحكم الاختلاف مع الآخر الدينى ، وهى :

ــ التنوع حقيقة واقعة ، فى حال التعدد ، وتلك أولى الحقائق الجديرة بالملاحظة .

ـــ الاعتراف بهذا التنوع من قبل كل المعنيين ، والتسليم بأن الاختلافات أساسية كانت أو فرعية قائمة وموجودة .

ـــ الحرص على التعايش برغم الاختلاف أو التعارض ، والوعي بأنه ربما كانت الاختلافات ذات قيمة إيجابية للمجتمع في كيانه الكلي الجامع (٢٦) .

ب ـ ومن النتائج السلبية :

١ ـــ التأثير السلبي على مصير الدين : إذ تحولت بعض أفكار التعددية من احترام الدين إلى التضييق عليه . وزعمت بعض تياراتها المطلقية لمقولاتها التحليلية وأنكرتها على الدين نفسه ، وعينت نفسها مضيفة للأديان لكنها لم تحسن الضيافة ، ويرى بعض الباحثين أن نصيب الإسلام من هذا التأثير السلبي ربما كان أكثر من غيره ـــ بسبب الضغط المحلي والدولي ـــ أكثر من غيره(٢٧).

٢ ـــ يرى بعض الباحثين علاقة تبادلية بين إشاعة العلمانية وضعف سلطان الدين ، وقد مر بنا أن أكثر نظريات التعددية ذات منزع علماني ، وإذا كانت الصحوة الدينية واقعًا مشهودًا أيضًا في العالم الإسلامي وخارجه ، فإنها رد فعل للإجراءات والمواقف العلمانية ، مما يجعل الصحوة تجنح نحو التطرف والغلو تبعًا لقوانين رد الفعل ، فالأصولية التي يحاربها الغرب هي نتاج غرسه ، وثمرة سياساته التغريبية والعلمانية (٢٨) .

٣ ـــ ومنها تفتت الجماعة الدينية ، بظهور أديان جديدة كالقاديانية والبهائية في العالم الإسلامي ، وكالدين المدني والدين الأسطوري ودين الإنسانية في الغرب (٢٩) .

٤ ـــ زعزعة الاستقرار الاجتماعي بسبب زعزعة مركز الدين السائد في المجتمع بناء على مقولات تساوي الأديان ، وإنزال المقررات الدينية عن مكانتها العالية إلى النسبية ، واختزال الدين في العلاقة الروحية بالخالق أو إلغاؤه على الإطلاق (٣٠) .

ـ ٤ ـ

الموقف الإسلامي من قضايا التعددية :

ربما كانت عبارة " التعددية الدينية " جديدة على اللغة العربية ، والمصطلح الفني الإسلامي ، لكن المفهوم نفسه راسخ وأصيل في صميم المصادر الإسلامية والمقررات الشرعية ، ولعل هذا هو السر في رواج المفهوم في العالمين العربي والإسلامي ، وكثرة الكتابات فيه كما أسلفنا ، وعقد العديد من حلقات البحث والمؤتمرات للتداول حوله ، وتناوله في البحث الجامعي أيضًا ، وقد أفادت هذه الورقة من أطروحتين لنيل درجة الدكتوراه إحداهما لباحث تركي والأخرى لباحث أندونيسي . وسنورد فيما يلي الشواهد الدالة على حضور هذا المفهوم وترسخه في أصول الإسلام وتراثه .

١ ـ التوحيد :

أ ـــ يؤسس القرآن الكريم لهذا الأصل الاعتقادي ، الذي هو شعار الملة الإسلامية ، بأمره للنبي ﷺ : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ ، وهو سبحانه منزه

عن كل صفات المخلوقين : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ [الشورى : ١١] . أمـا عالم الخلق فمبناه على التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف في مستوى الجمـاد والنبـات والحيـوان والإنسان على سواء : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ [الروم : ٢٢] . ويقول سبحانه : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم مـن نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرا ونساءً ﴾ [النساء : ١] . ويقول عز من قائل : ﴿ ألم تر أن الله أنـزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشـى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ [فاطر : ٢٧ ــ ٢٨] .

ب ــ بل إن القرآن الكريم يجعل هذا الاختلاف والتنوع أمرا مقصودًا ، وسنة مرعية في الخلـق لحكم عنده سبحانه قد تخفى على العباد ، وقد يدر كون بعضها ولا يحيطون بسائرها ، لكنها دائمًا هناك : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحـم ربـك ولـذلك خلقهم ... ﴾ [هود : ١٨ ــ ١٩] .

جـ ــ وتشير آيات أخرى في القرآن إلى بعض حكم التنوع والتعدد والاختلاف التي منـها حفز البشر على التسابق في طريق الخيرات : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا فاستبقوا الخـيرات إلى الله مرجعكم جميعا ... ﴾ [المائدة : ٤٨] . وقد يكون من حكمته أيضًا الحض على التجديـد والإبداع : ﴿ ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير ﴾ [البقرة : ١٤٨] .

٢ ـ التعاون أو التدافع :

وعلى الجماعة أن تستثمر تنوعاتها وتستوعب اختلافاتها ، وتبني حضارتها على أساس من التعاون والتضافر : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ [المائدة : ٢] . فـإن اختل جانب في المنظومة الاجتماعية بأطيافها المختلفة كان " التدافع " سبيلاً إلى إعـادة الميـزان إلى اعتداله والحق إلى نصابه (٣١) : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم لهـدمت صـوامع وبيـع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾ [الحج : ٤٠] .

٣ ــ وقد أوجب القرآن على المسلمين الإيمان بكل الأنبياء والرسل السابقين بحيث لا يتم الإيمان إلا بها ، ولا ينجو العبد في الآخرة بدونها ﴿ آمن الرسول بما أنـزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمـن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، وكرر ذلـك في مواطن من أصرحها ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسـله ويقولـون

نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ﴾ [النساء : ١٥٠ ــ ١٥١

وهذه أحكام اعتقادية تتصل بأصول الدين الإسلامى تؤسس للتعددية فى ضمير المسلم ، بحيث تجعل علاقته بهم لا تقوم فقط على العدل والإنصاف الواجب نحو كل مخلوق ، بل على البر والإكرام ، كما قال سبحانه : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين و لم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ [الممتحنة : ٨] .

فإذا انتقلنا بعد العقيدة إلى مستوى الفقه وجدنا أحكامًا رائعة فى تنظيم العلاقات الدينية وإرساء أسس التعددية فى المجتمع المتعدد الأديان ، ومنها :

١ ــ تحريم الإكراه على العقيدة أو الدخول فى الإسلام بأى وسيلة من وسائل الجبر والإكراه ، طبقًا لقوله سبحانه : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى .. ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

٢ ــ ومنها حماية أماكن العبادة التى يذكر فيها اسم الله باعتباره واجبًا على الجماعة المسلمة كحماية المساجد سواء بسواء ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ [الحج : ٤٠] .

٣ ــ ومنها إباحة الزواج من الكتابيات فيعيش المسلم مع الكتابية تحت سقف واحد ، ويرعيان أبناءهما معا فى عيش واحد وطعام واحد ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن ﴾ [المائدة : ٥] .

٤ ــ ومنها المشاركة فى المواطنة ، كما أفادت صحيفة المدينة التى أعلنها رسول الله ﷺ غداة هجرته . وأما الجزية فقد تسقط باتفاق كما فعل عمر ﷺ مع بعض القبائل الشمالية أو يقومون بالدفاع مع إخوانهم المسلمين .

إنها منظومة من الأحكام والتنظيمات التفصيلية تقف وراء النموذج الرائع الذى عرف عن المسلمين فى مراحل تاريخهم ــ اللهم إلا فى أحداث نادرة لأسباب طارئة لا تمثل الخط الدائم أو الموقف الأصيل .

ولعل أروع ما فى الهدى القرآنى مما نختم به هذا البيان الموجز عن " الموقف الإسلامى من قضايا التعددية" هو تلك الآية الكريمة التى يهتز لها القلب وتأنس بها الروح : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ [الحجرات ١٣] صدق الله العظيم .

مراجع وإحالات :

١ ــ أنيس مالك طه : التعددية الدينية رؤية إسلامية ، من منشورات الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ، كوالا لامبور ، ط أولى ، ٢٠٠٥ ، ص ٨ .

٢ ــ السابق ٢٨٩

٣ ــ انظر مقالة " التعددية :" الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية " فى الجامعة الإسلامية ، عدد ٢ ، السنة الأولى ، ١٤١٤ / ١٩٩٤ ، ص ٦٧

٤ ــ أنيس مالك طه (مرجع سابق " ص ٩

٥ ــ انظر السابق : ٤٨ ــ ٥٣ ، وعبد الرحمن السالمى ، مجلة التسامح ، العدد ١٢ ، السنة الثالثة ، سلطنة عمان ، طريف ١٤٢٧ هـ = ٢٠٠٥ م ، ص ٧ ، وكذا أحمد صدرى فى مجلة " إسلامية المعرفة " السنة ٧ ، العدد ٢٧ ، شتاء ١٤٢٢ هـ = ٢٠٠١ م ، ص ١٣٦

٦ ــ أنيس مالك طه (مرجع سابق " ص ٢٥ ــ ٣٢

٧ ــ السابق : ص ٣٦ ــ ٤٥

٨ ــ انظر : عمارة ــ محمد ، مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية ، ضمن محاضرات الموسم الثقافى الثالث عشر للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد ، إبريل ٢٠٠٠ م ، ص ٢٦ وما بعدها .

٩ ــ انظر : محمد خليفة حسن أحمد : آثار الفكر الاستشراقى فى المجتمعات الإسلامية ، دار الثقافة العربية بالقاهرة ، ط ٢ ، ٢٠٠٦ ، ١١ ــ ٣٣

وأيضًا : أحمد يوسف : المخطوط السرى لغزو مصر ، كتاب الهلال ، العدد ٥٢٥ ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٩٤ م ، ص ٥ وما بعدها .

وأيضًا إبراهيم البيومى غانم : الغرب فى رؤية الحركة الإسلامية المصرية ، أمة برس للإعلام والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٣ م ، ص ٤ وما بعدها .

١٠ ــ انظر : عبد الرحمن السالمى (مرجع سابق) : ص ٥

١١ ــ عطية ، محيي الدين : التعدد ــ قائمة ببليوجرافية منتقاة ، فى مجلة إسلامية المعرفة ، الولايات المتحدة ، السنة الأولى ، العدد الثانى (ربيع ١٩٩٥م) ، ص ٢٣٧

١٢ ــ أنيس مالك طه (مرجع سابق " ص ٦٣

١٣ ــ السابق : ٧٤

١٤ ــ السابق : ٦٥ ــ ٧٧ ، وانظر : جون ديوى : الطبيعة البشرية والسلوك الإنسانى ، مؤسسة فرنكلين ، القاهرة ، ١٩٦٣ م ، ٢٩٣ ــ ٣٢٧

١٥ ــ أنيس مالك طه (مرجع سابق " ص ٨١ ، وانظر : محمد خليفة حسن (مرجع سابق) ص ٤٨ وما بعدها .

١٦ ــ انظر : المسيرى ــ عبد الوهاب : العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ، دار الشروق ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٨ م ، ص ٩ وما بعدها ؛ ومنير شفيق : الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر ، دار طع للنشر ، لندن ، ١٩٨٣ م ، ١٢٦ وما بعدها ، وانظر : عادل ضاهر : الأسس الفلسفية للعلمانيـــة ، دار الساقى ، بيروت ، ١٩٩٣م ، الفصل السابع ؛ ونصر حامد أبو زيد : نقد الخطـــاب الـــدينى ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٩٥م ، ص ١٤٦ وما بعدها .

١٧ ــ أنيس مالك طه (مرجع سابق " ص ٨٣ ــ ٨٤

١٨ ــ السابق : ٨٧

١٩ ــ السابق : ٩٩ ــ ١١٣

٢٠ ــ السابق : ١٣٨

٢١ ــ السابق : ١٢٩

٢٢ ــ انظر : رينيه جينو : أزمة العالم المعاصر (ترجمة : سامى محمد عبد الحميـــد ، دار النـــهار ، القاهرة ، ١٩٩٦ م ، ص ٧٦

٢٣ ــ أنيس مالك طه (مرجع سابق " ص ١٥٥

٢٤ ــ السابق : ١٥٦ ــ ١٥٨

٢٥ ــ عبد الرحمن السالمى (مرجع سابق) ص ٩ ــ ١٠

٢٦ ــ أنيس مالك طه (مرجع سابق " ص ١٧٣

٢٧ ــ السابق ١٧٧ ، وانظر : رضوان السيد (مجلة التسامح مرجع سابق) ص ١٩

٢٨ ــ محمد خليفة حسن (مرجع سابق) ص ١٥ ــ ٢٠

٢٩ ــ السابق ٢٢ ، و أنيس مالك طه (مرجع سابق " ص ٢٢٥

٣٠ ــ السابق ٢٣٠ ــ ٢٣٦

٣١ ــ انظر : عمارة محمد (مرجع سابق) ١٠٦